احمد طلعت

المحامي بالنقض

حرية الفكر والعقيدة

دراسة مختصرة ... ودعوة للحوار...

محاضرة ألقيت
في مركز أبن خلدون
للدراسات الإنمائية

قبل البداية :

هنالك عدة حقائق أود أن أسجلها ، قبل الاستطراد في الحديث عن حرية الفكر ..

أولا: الحرية بلا فكر لا قيمة لها .. فهي فوضى وضياع وترخص ..

والفكر بلا حرية لا جدوى منه .. فهو السجن الذي يحبس طاقة الإنسان،والعرش الذي يجلس عليه أصحاب الطغيان ..

لذلك فان تعبير " حرية الفكر " .. أي تلازم الكلمتين . هو الذي يعطي الحرية جدواها ، ويعطي الفكر قداسته ..

ثانيا : وهناك تلازما يلفت النظر بين حرية الفكر والتقدم الإنساني ، فالعصر الذي تسود فيه حرية الفكر يكون بالضرورة عصرا متقدما تزدهر فيه الحياة بكل صورها ، أما العصر الذي تخمد فيه الحرية الفكرية فهو دائما عصر مجدب مظلم ، يتفشى فيه الجهل والتأخر .

ثالثا : كما أن هناك تلازما وثيقا بين حرية الفكر وفضيلة التسامح ، بل هما وجهان لعملة واحدة، فلا يمكن أن تقوم حرية الفكر إلا على قاعدة التسامح ، وأشد أعداء الحرية الفكرية هي الفلسفات التي تزعم لنفسها احتكار الحقيقة ..

رابعا : لقد علمنا التاريخ أنه ليست هناك قوة على الأرض – مهما بلغ سلطانها وجبروتها – تقدر على سحق أية فكرة إلى الأبد ، فالأفكار لا تقتلها إلا الأفكار . ولا يمكن أن يقتلها الحديد والنار ، لذلك تنتصر حرية الفكر في النهاية ، وتهزم الفكرة سيف الجلاد ..

حرية الفكر في العالم القديم :

لقد أستطاع الإنسان بفضل العقل الذي وهبه له الخالق أن يتعلم فن الكلام والتفكير ، وبهذا تميز عن الحيوان واستطاع أن يورث معارفه للأجيال التي أتت من بعده ، وبهذا كانت البشرية– ولا تزال – تتقدم جيلا بعد جيل ..

وفي الحقبة البدائية لم تكن هناك قوانين موضوعة ، أو رغبات معقدة ، أو مؤسسات صارمة .. لكن كان هناك شيئ واحد يرزح تحت عبئه الإنسان البدائي دون أن يشعر هو فكرة " التابو "

والتابو فكرة أوجدها المجتمع البدائي ليحمي بها سلامة الجماعة ، ويكفل لنفسه السلام الذهني ، فقد كان تعريض أمن القبيلة للخطر أكبر الجرائم على الإطلاق ..

لذلك كانت فكرة " التابو " في المجتمعات البدائية ، تقوم مقام آلاف القوانين وملايين الجنود ورجال البوليس والمحاكم والسجون .. فهي الممنوع أو المحظور الذي لا يجرؤ أحد على انتهاكه ولو سرا ..

وفي ظل هذه الفكرة كان الإنسان البدائي مقيدا في حريته ، وكانت فكرة التسامح أبعد ما تكون عن طبيعته ، فلا تسامح ألبتة في كل ما يمس " التابو " أو القانون الأساسي للقبيلة ، ومن يخرج عليه بالعمل ، أو القول ، أو الفكر جزاؤه الموت أو الطرد من القبيلة ، وهو موت مدني وبدني معا ..

ومن الطبيعي أن لا تكون هناك حرية فكر في مثل هذه المجتمعات البدائية ، حيث قيودها أشد ضراوة من قيود المجتمعات الحديثة .

ولقد عاش الإنسان في قيود التابو ٩٨ % من حياته على الأرض ، فقد وجد الإنسان على الأرض – وفقا لأحدث النظريات العلمية – منذ نصف مليون سنه لكنه لم يقترب من الحضارة إلا منذ عشرة آلاف سنه على الأكثر .. !!

الحضارات القديمة :

كان من المستحيل أن يشعر الإنسان بحريته أو يمارس حقه في حرية الفكر قبل أن يشعر أولا بفرديته .

وفي المجتمعات البدائية كان الإنسان جزءا من المجموع ومن الطبيعة .. وكل الديانات القديمة تشهد بمدى اتحاد الإنسان بالطبيعة ، سواء الطبيعة الصديقة أو الطبيعة المعادية .. فهو يتقرب إلى الأولي بدافع الحب أو النفع ، ويتعبد للاخري بدافع الخوف وأتقاء الخطر .

والوحدة مع الطبيعة والعشيرة كانت تكفل للإنسان الانتماء والأمن ، لكنها في نفس الوقت كانت تعوق تطوره العقلي وقدرته على النقد ، أي تعوقه كفرد حر يتحكم في فكره ومصيره .

وإذا كانت القاعدة أن إنسان الحضارات القديمة ظل مجردا من الحرية فمما يخفف من هذه القاعدة أنه كان يسعى – دون أن يدري – وبحكم أوضاعه الجديدة نحو الحرية عندما تعلم أن يعيش داخل مدينة ، إذ استطاع سكان المدن بفضل تمتعهم بفائض أنتاج الريف أن يحرروا أنفسهم جزئيا من قيود العمل اليدوي ومتطلبات الإنتاج المادي ، فأصبحوا أكثر استقلالا واعتمادا على أنفسهم ، وبالتالي أكثر قدرة على الإحساس بفرديتهم وحاجتهم إلى البحث عنها وتدعيمها ..

لكن الإنسان – في الحضارات القديمة – كان مع ذلك يئن تحت وطأة قيود ثقيلة تسحق الفرد سحقا ، وتعرقل نموه الفكري ، وأهم هذه القيود هي الحكم المطلق ، والكهانة ، الحرب ، والعبودية .

- فلم يعرف إنسان الحضارات القديمة حكما سوى الحكم المطلق ، فكل حكام الحضارات القديمة طغاة يملكون حق الحياة والموت ، وأشخاصهم مقدسة باعتبارهم يمثلون الإله على الأرض ، أو يجسدونه على الأرض ، كما كان الحال في مصر القديمة ..

- ومن القيود التي رزحت فيها الحضارات القديمة كذلك الحرب ، فقد كانت الحرب هي القانون الوحيد الذي يحكم العلاقات " الدولية " في العالم القديم ، والحرب بطبيعتها من ألد أعداء الحرية ، فهي تكرس كل موارد المجتمع البشرية والمادية للهجوم والدفاع ، ومثل هذا الجو لا يمكن ان يفرز أفكار الحرية الفردية أو الفكر الحر .. فلا صوت يعلو على صوت المعركة .. !!

- وكانت ألكهانه أيضا قيدا ثقيلا يكبل إنسان الحضارات القديمة ، والكهانة تكبت حرية الفكر والضمير ، كما يكبت الحكم المطلق الحريات السياسية ، وفي معظم الحالات كان الملك هو الكاهن الأكبر ، وهنا تتحد السلطتان القامعتان للفكر والحرية ، السلطة

السياسية والسلطة الدينية ، وفي حالات قليلة كان الكهنة يغتصبون مجالس الملـوك كما حدث في الأسرة الخامسة في مصر وفي عصر القضاة عند اليهود .

- ورابع هذه القيود نظام العبودية ، والعبودية نتاج للحرب ، وكانت نظاما اجتماعيـا سائدا في معظم أو كل الحضارات القديمة ، وعندما ينقسم المجتمع إلـى طبقتـين ، أحرار وعبيد ، فلا معني للحديث عن الحرية أو الفكر ، وحتى أن وجد فهو احتكار للطبقة الحاكمة ، كما كان الأمر في اليونان القديمة .

ويكفي أن الفنانين العظام الذين أنتجوا أروع الفنون ، وصنعوا أبـدع التماثيـل واللوحات ، لم يحفظ التاريخ أسم واحد منهم ، ولم يكن هناك ادني تفكير – فـي الحضـارات القديمة – في أن ينسب التمثال أو الصورة أو الآنية أو تحفة الجوهر إلى الفنان الذي أيدعها ، وإنما تنسب فقط للملك الذي صنعت من أجله ، فلا قيمة للفرد .. ولا قيمة بالتالي لحرية الفكر ..

حرية الفكر عند الإغريق :

كان جو اليونان مشبعا بالحرية الثقافية ، والروحية ، وقادرا على التسامح .. فالإغريق كانوا سكان مدن ، أستطاع أول مفكريهم " طالبيس " أن يعلن اعتقاده بان قوى الطبيعـة هـي مجرد مظاهر لأرادة خالق ، لكنها بعيدة في تفاعلها كل البعد عن التدخل الشخصي لهذا الخالق .. كما أعلن اعتقاده بان عنصر" الماء " هو أصل الوجود لكل شئ .. ومع ذلك لم يتعرض له أحد ، مع أنه – بهذه الأفكار – قد حطم كل الأرباب التي كان يؤمن بها الإغريق في عصره ..

ورغم انتكاسات قليلة لحرية الفكر بعد عصر " طاليس " فقد ظل علماء اليونان ومفكـروه لمدة جيل كامل يقولون ويذيعون كل ما يعن لهم من نظريات مهما كانت مخالفـة للمعتقـدات السائدة .

بل أن " بروتاجوراس " استطاع أن يخرج على الناس بنظرية " خطيرة " في ذلك الوقت ، إذ قال بأن الإنسان هو معيار كل شئ ، وان الحياة أقصر من أن تتبدد في البحث عن وجـود

اللآلهه ، وبالتالي فأن كل نشاط يجب أن يبذل في سبيل هدف واحد هو جعل الحياة أكثر جمالا وأكثر بهجة ..

وقد أتهم " بروتاجوراس " بالإلحاد وعدم الأيمان بالآ لهه وأحيل إلى القضاء ، لكنه هرب فلم يحاكم ، فقد كانت آراؤه أخطر من أن يمكن السكوت عليها من جانب المتعصبين في المجتمع بعد سلسلة من الهزائم والنكبات في الحرب بين أثينا واسبرطة ..

كذلك كان " سقراط " أشهر حالات الصراع بين التعصب وحرية الفكر ، في تاريخ أثينا والعالم ، فقد كان سقراط يقصر أيمانه على اله واحد ، ويجعل من نفسه " نبيا " لهذا الإله ، وكان يقول بان الصلة التي بينه وبين هذا الإله هي صوت داخلي أو هاتف مقدس ينبعث من أعماقه ..

وقضى سقراط حياته الطويلة التي جاوزت السبعين عاما يدعو للحق ، والحكمة ، والفضيلة ، وهي القيم التي وهبها للناس اله واحد عظيم .. لكنه مجهول ..

ورفع سقراط أعظم شعار عرفه الإنسان ، وهو شعار " اعرف نفسك " ومع ذلك فقد قتلته السياسة ولم تقتله الفلسفة .. فقد كان لسقراط أعداء كثيرون يعتبرون أنفسهم " أعداء المجتمع الاثيني " الذين جعل هوايتهم المفضلة أن يفضح جهلهم و غرورهم وتفاهة حياتهم وأفكارهم ..

وعندما قدم سقراط للمحاكمة قال " ماليتوس " – ممثل الاتهام – (أن سقراط أرتكب شرا لأنه لا يؤمن بالآلهة التي تؤمن بها المدينة ، ويخترع آلهة من نسج خياله ، وهو يفسد الشباب ، وينبغي أن يكون عقابه الموت)

وكان دفاع سقراط ، الذي سجله وخلده تلميذه افلاطون ، قطعة فنية للدفاع عن حرية الفكر إذ قال أمام قضاته :

((ليس لأحد على وجه الأرض الحق في أن يملي على الآخرين ما يجب عليهم أن يعتقدوه ، أو ان يسلبهم الحق في أن يفكروا كما يريدون ، ومادام إن أحدا لا يستطيع إن يصل

إلى النتائج السليمة دون إن يفحص كل مسألة فحصا دقيقا ، قلبا وقالبا ، لذلك فأنـــه يجـــب أن يكون من حق أي إنسان أن يبحث أي مسألة من المسائل بحرية تامة ودون تدخل من جانـــب السلطات .))

ومع ذلك حكم على سقراط بالموت ، وأودع السجن ليمضي أيامه الأخيرة قبل إن يجـــرع كأس السم ، لكن تلاميذه وحواريوه واصلوا الطريق وعلى رأسهم أفلاطون وأرسطو .

وتاريخ أثينا مع حرية الفكر تاريخ طويل ، لكنه كان يمثل في مجمله اعنف صراع بـــين الجمود والتطور ، وبين التعصب والتسامح ، لكن محصلته في النهاية كانت البدايـــة الحقيقيـــة للفكر الحر في العصور التي جاءت بعد ذلك .

الرومان .. وحرية الفكر:

في حين كان الإغريق ينظرون إلى حرية الفكر باعتبارها من المثل العليا التي يكافح المجتمع في سبيل تحقيقها ، كان الرومان يسمحون بحرية الفكر باعتبارها شيئا تافها لا يستحق عنـــاء الوقوف ضده أو الاعتراض عليه .. !! (وهو موقف بعض الأنظمة المعاصرة أيضا)

لذلك ، فقد سمح الرومان لرعاياهم بالتفكير كما يريدون ، وبان يعبدوا ما شاءوا من الآلهة ، وان ينشروا ما أرادوا من الأفكار ، بشرط إن لا يعرض ذلك " سلامة الدولـــة " أو ينتهـــي الاجتماع – مثلا – بالتحريض على عدم دفع الضرائب ، أو التهرب من الجنديـــة ، أو إفســـاد النظام العام .. !!

لكن روما التي هزمت العالم دمرت نفسها أيضا ، عندما بعثرت عظام جنودها في ألـــف ساحة للقتال ، وأجهدت عقول شيوخها وأذكيائها في مهمة خرافية هي إدارة إمبراطورية تمتـــد من ايرلندا إلي بحر قزوين ، ومن بحر الشمال إلى مجاهل أفريقيا وآسيا ..

وكان لابد أن يأتي رد الفعل ، فبعد إن أنهكت روما نفسها بدنا وذهنا كمدينة تحكم العـــالم كله ، سئم الرومان كل شئ ، وفقدوا لذات الحياة ، وأصبحت أكبر سلوى لسكان روما تأمـــل المجهول ، وما وراء الطبيعة ، وبحثوا في الدين عما افتقدوه في الدنيا ، وتطلعوا إلي الإلهه من

كل الأجناس ، بعد أن أصبح الوجود نفسه عبئا ، وأصبح الكثيرون على استعداد للتخلص منه تحت شعار الاستشهاد .. !!

ومن احدى الولايات الرومانية '' فلسطين '' انطلقت أشهر صيحة من صيحات حرية الفكر ، فقد عاش في أحد قراها إنسان بسيط يدعى يسوع ، أو عيسى ابن مريم ، كان يدعو الناس إلى الفضائل وعبادة الإله الحق ، لكنه لم يلبث أن وقع في نزاع هائل مع بني جلدته من اليهود ، وكانت كل جريمة السيد المسيح – في عين أعدائه – هي حرية الفكر .. ولا شئ آخر

ولم يشغل عيسى بن مريم نفسه بالنظام القائم ، ولم قل شيئا ضده أو معه ، وكان ينصح مستمعيه إن يطيعوا قوانين البلاد وان يحاولوا أصلاح أخطائهم هم ، قبل التفكير في عيوب حكامهم ودعاهم إلى أعطاء ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله ..

كما انه لم يأمر إتباعه بالامتناع عن الذهاب إلى المعبد ، بل شجعهم على إن يكونوا مخلصين في آداء واجباتهم الدينية ، وكان يحترم " العهد القديم " ويشير إليه كثيرا في مناقشاته

لقد كان هدف المسيح هو شئ واحد ، أن يجعل الناس ينظرون إلى ما وراء الرغبات العاجلة في هذه الحياة الدنيا ، وان ينشدوا صحبة تلك الروح المطلقة التي خلقتهم جميعا ووحدتهم بالحب والخير والرحمة والتسامح ، وان يدركوا أن الله لا يفرق بين الناس طبقا لجنس أو لون أو طبقة أو عقيدة ..

وكان السيد المسيح يحذر الناس من أن يكتنزوا المال ، ويحثهم بدلا من ذلك أن يختزنوا في نفوسهم القيم الطيبة والمثل النبيلة .

لكن المتعصبين اليهود – مع ذلك – أصروا على صلب ابن مريم ، حتى إن " هيرود " قال لهم :

- لكم ما تشاءون بشرط ان تحملوا دماءه فوق رؤوسكم ..
- فقالوا : بل ورؤوس أبنائنا .. !!

وهكذا أصبح السيد المسيح – بغض النظر عن الناحية الدينية – من أكبر شهداء الفكر في التاريخ .

ومع ذلك فان كلمات المسيح لم تستطع إن تقتلها حراب الجنود الرومان ، ولا أحقاد كهنة اليهود ، ولا حتى الإمبراطور نفسه ، فوصلت هذه الكلمات إلى عشرات .. بل مئات الملايين من البشر .. على مر العصور وعلى اتساع قارات العالم ، مما يؤكد إن الفكـــرة لا تقتلهـــا إلا الفكرة ، ولا يقتلها أبدا سيف الجلاد ..

وليس معنى ذلك إن المسيحية لم تضطهد على مر تلك العصور ، فقد كان اضطهادها شيئا مألوفا في روما وسائر أنحاء الإمبراطورية ، وكانت أشهر نوبات الاضطهاد تلك التي حـــدثت في عهد الأباطرة " كراكالا " و " ديسيوس " و " جالوس " و " فاليريانوس " و " جالينوس " و دقلديانوس " وغيرهم ..

لكن التاريخ يشهد – مع ذلك – أن الصلب أو السجن أو التعذيب لم يكن يجدي نفعا مـــع قوم يؤمنون بان الحياة تبدأ بعد الموت ، ويبتهجون بفرصة الخلاص من هذه الـــدنيا ليتمتعـــوا بمباهج السماء ..

وفي ذروة هذه الاضطهادات كان الكثيرون من الكتاب الرومان – الـــوثنين – يرفعـــون أصواتهم في جانب التسامح الفكري والتعايش بين الأديان ، فيقول كونيتس سيماخوس :

((لماذا لا نعيش مع المسيحيين في سلام ووئام ، إننا ننظر إلى نفس النجوم ، ونسير على نفس الكوكب ، ونغوص تحت نفس الماء ، فماذا يهم أن يختار كل فرد الطريق الـــذي يـــرى أنـــه يوصله الى الحقيقة المطلقة .. ؟ أن لغز الوجود اكبر من ان يقتصر حله على طريق واحد))

ويقول الفيلسوف الوثني " تيموسيوس " :

((هناك مجال لا يستطيع اى حاكم أن يباشر عليه سلطانه ، انه مجال العقيدة ، لذلك فمن الأفضل للحاكم أن يتسامح إزاء كل العقائد .))

وفى مرحلة لاحقة ، انقضى عهد الحرية الذهبي في روما، وماتت الديموقراطية ، ومعها حرية الفكر ، ولم يعد هنالك وجود لذلك المواطن الروماني الحر الذي يرفع صـــوته فـــي الســـاحات والمنتديات بكل ما يمليه عليه ضميره، وأصبحت أرادة ألإمبراطور هي القـــانون ، ومراســـيمه

تحكم كل صغيرة وكبيرة وتدخلت الدولة في كل شيء ، حتى في تحديد أسعار اللبن والبيض ، وأصبح جواسيس الإمبراطور يضعون أعينهم على كل مواطن ، حتى تحول الرومان جميعا إلى عبيد للدولة ، وفرضت عليهم _ جميعا _ عبادة الإمبراطور ..!!

وفى مثل هذه الأوضاع يكون من العبث البحث عن اى أبداع ادبى أو فني أو تقدم علمي أو أنجاز اجتماعي أو أقتصادى ، وتكون عبثا محاولة البحث عن القيم الإنسانية العليا كالتسامح وحرية الفكر والاعتقاد .

الكنيسة.. وحرية الفكر :

دارت عجلة الزمن ، وأصبح المسيحيون هم أصحاب السلطة في الإمبراطورية الرومانية ، ففي عام ٣١٣ ميلادية أعلن الإمبراطور " قسطنطين " اعتناقة الديانة المسيحية ..

وأعطي ذلك دفعة جديدة لهذا الدين , وما ان حل عام ٣٨٠ الميلادي حتى أصدر الإمبراطور " ثيودسيوس " أمره الشهير بإيقاف مراسم العبادات الوثنية واعتماد المسيحية كدين رسمي وحيد للإمبراطورية..

فماذا كان موقف المسيحيين .. أو بالإحرى كنيسة روما من حرية الفكر ..؟؟

لقد كان موقفها _للآسف _ أسوأ من موقف أشد ألاباطره الوثنين جهلا .. وتعصبا .. واضطهادا .. فقد أعلنت الكنيسة حربا لا هوادة فيها على كل ما ليس مسيحيا ، وبلغت في ضراوتها ضد العقائد الأخرى حدا لم تبلغه الحركات البربرية نفسها ..!!

وصدرت الإشارة بالانطلاق لتدمير كل الديانات والثقافات القديمة في شتى أنحاء الإمبراطورية ، ولم تلبث إن ارتفعت السنة اللهيب والدخان في سماء روما وأثينا والإسكندرية – مراكز الثقافة القديمة وقلاعها الحصينة – وأضرمت النيران في المراكز العلمية والمتاحف والمكتبات ، وأحرقت كنوز لا تعوض من دواوين الشعر اليوناني ، والتراث الأدبي و الفلسفي والعلمي والتاريخي لكل حضارات العالم القديم ، وقتل المسيحيون في الإسكندرية " هيباثيا " أستاذة الفلسفة في جامعة الإسكندرية ، ومثلوا بجثتها والقوا بها في الطريق لتنهشها الكلاب .. !! وفي عهد القيصر " فالين " تحولت جامعة " السزاريوم " الى كنيسة مسيحية ..

وفي عام ٣٩١ أذن القيصر ثيودسيوس للبطريرك ثيوفيلوس بتخريب أكبر مزار في العالم القديم وأكبر أكاديمية علمية في مصر وهو " السيرابيون " وحرق مكتبته ..

وقد نالت مصر بالذات الشئ الكثير من نقمة المسيحيين الذين اندفعوا بقيادة قسسهم ورهبانهم يدمرون كل رموز الديانات القديمة ، فخربت المعابد ومنع الكهنة من مزاولة طقوسهم ، وقيل إن أربعين ألف صورة وتمثال للآلهة قد دمرت في حملة واحدة ..

وما ان انتصف القرن السادس الميلادي حتى بعث الإمبراطور " جستنيان " بقائده " نوسيس " إلى جزيرة فيلة للقضاء على أخر معاقل الديانات القديمة في مصر ، فدمر معابد أيزيس واوزوريس وحتحور وخنوم وأمحتب ، وأرسل كنوزها الى القسطنطينية ..

ولم يكن الحال بأفضل في روما ، فقد أغلق معبد جوبتر وأحرقت جميع كتب العقائد القديمة ، ودمرت مكتبة روما التي أسسها أغسطس قيصر ، وفي بلاد الغال أعلن أسقف " تور " أن جميع الآلهة القديمة في حكم الشياطين وأمر بإزالة أي أثر لمعابدهم من على وجه الأرض ..

وفي بلاد اليونان سارت عملية التخريب على نفس الوتيرة ، وألغيت الألعاب الاولمبية ، وأغلقت جامعة أثينا ، وصودرت ممتلكاتها وهرب أساتذتها ..

وبذلك انتصرت كنيسة روما نهائيا على أعدائها من أصحاب الديانات القديمة ، وضربت المثل في التعصب مع مخالفيها في العقيدة ..

وبعد إن انتهت كنيسة روما من تسوية حساباتها مع أصحاب الديانات القديمة ، التفتت إلى المسيحيين أنفسهم ممن لا يشاركونها وجهة نظرها في العقيدة المسيحية ، وأخذت تذيقهم نفس الكأس التي جرعتها قبل ذلك لأصحاب الدينات القديمة ..

ونال أقباط مصر بصفة خاصة نصيبا وافرا من الاضطهاد جزاء ثباتهم على مذهبهم ، فقد حدث انقسام مبكر بين المسيحيين حول طبيعة السيد المسيح ، هل هي إلهية أم ناسوتية أم إلهية

وناسوتيه معا ، وكانت الكنيسة الكاثوليكية تأخذ بمذهب الطبيعتين ، أما كنيسة الاسكندرية فقد ثبتت على مذهب الطبيعة الواحدة .

والحقيقة أن الكنيسة كمؤسسة تحتكر شعائر الدين المسيحي ليست من تعاليم السيد المسيح ، فالمسيح لم يمتد به العمر حتى يقيم تنظيما لا نصاره ، بل المؤكد أن هذا التنظيم لم يكن يدور بخلده .. فالثابت أن الدين أتى به المسيح والكنيسة أتى بها بطرس ..

وكانت الكنيسة المسيحية تدعى لنفسها السلطتين الدينية والزمنية ، مع إن المسيح نفسه قد نادى بإعطاء ما لله لله وما لقيصر لقيصر .. ؟

وأدى ثراء رجال الدين واهتمامهم بالدنيويات إلى اختفاء روح الإخوة والبساطة والمساواة التي بشر بها الدين المسيحي ، وحلت محلها روح القسوة والتعالي وانتشار الفساد ، فاتسعت الهوة بين رجال الكنيسة وجمهور المسيحيين .

واعتنقت الكنيسة فكرة بالغة في الرجعية تقول بأن العقل البشري ليس هو الذي يضئ السبيل أمام النفس ، بل الوحي الإلهي ، فكانوا يعتقدون إن تكريس الجهد في دراسة الظواهر الطبيعية مفسدة للقوى العقلية للإنسان ، وكان من نتيجة ذلك أن وقعت الكنيسة في خرافة تبرأت منها الوثنية ذاتها وهي " احتكار الحقيقة " وهي النظرية التي أدت إلى اكبر قدر من العذاب تحمله الجنس البشرى في تاريخه .

فقد اعتبرت الكنيسة نفسها الحارس المقدام للحقيقة المطلقة ، لذلك فقد صادرت حرية الفكر ، فلماذا تفكر الناس مدام الكنيسة هي التي تفكر لهم .. ؟ ؟

وهكذا كانت المسيحية في القرون الوسطي لا تكتفي باضطهاد مخالفيها في الدين ، وإنما كانت تدين البحث العلمي وتحارب الفكر الحر، ووصلت إلى حد تحريم الطب وأدى ذلك إلى تأخر عصر النهضة الأوربية عدة قرون ، وامتداد الآلام البشرية طيلة هذه القرون .

وقد لخص سلامة موسى هذا كله في كتابه حرية الفكر فقال :

((الدين في نفسه لا يمكنه أن يضطهد العلم ، وإنما الاضطهاد يرجع إلي الكهنة ، ولكن الكهنة أنفسهم لا يمكن أن يضطهدوا أحدا ما لم تكن السلطة في أيديهم ، فالذي قيد حرية الفكر والذي أضطهد الناس هي السلطة الحكومية ، وما دام الدين بعيدا عن الحكومة فأنه لا هو ولا الكهنة يمكنهم إن يضطهدوا أحدا ، أما إذا صارت الدولة والدين جسما واحدا ، أمكن رجال الدين أن يضطهدوا من يشاءون وأن يقيدوا الفكر كما يشاءون .))

والحديث يطول عن المذابح التي كانت من صنع – واختراع – البابا انيوسنت الثالث الذي أعتلى عرش البابوية منذ عام ١١٩٨ ميلادية ، فكانت مذبحته الأولى ضد المسيحيين في القسطنطينية ، والثانية في جنوب فرنسا لا خماد ما سماه بفتنة الشيطان ..

كما يطول الحديث عن " محاكم التفتيش " التي أنشأها البابا جريجورى الرابع في عام ١٢٣٣ ميلادية ، حيث أمر الأساقفة بأن يستخدموا " سر الاعتراف " في مقاومة المخالفين في الرأي ، وبذلك خانت الكنيسة مبادئها وحولت الاعتراف إلى تجسس وانتهاك للأسرار ..

وحتى يفهم المرء روح محاكم التفتيش تلك ، ينبغي أن يتخلى تماما عن أي فكرة مسبقة عن الشرعية والعدالة أو مبدأ أن الإنسان برئ إلى أن تثبت أدانته ، أو حق المتهم في ضمانات التحقيق وعدالة المحاكمة ، أو حقه في الحصول على شهود النفي ومواجهة شهود الإثبات ، يجب أن يتخلى الإنسان عن مثل هذه الأفكار تماما إذا أراد إن يفهم ماهية محاكم التفتيش ، فتلك المحاكم لم تنشأ للمحاكمة ، وإنما للتجريم ..

والمضحك – أو المؤسف – أن الموتى أنفسهم لم يكونوا في منجاة من محاكم التفتيش ، ففي حالات كثيرة – هدفها مصادرة الثروات الكبيرة – كانت تجري محاكمات للموتى الذين غادروا الحياة منذ عشرات السنين ، فيتهمون بالهرطقة ، وتثبت محاكم التفتيش أنهم مذنبون ، فتحفر قبورهم وتحرق عظامهم ، وتصادر أموالهم وتنتزع من أيدي ورثتهم من أبناء وأحفاد ..

وهكذا وضعت محاكم التفتيش أصابعها على الكلمة المسموعة .. والمطبوعة .. والمهموسة وحولت الفكر إلى سلعة مُصادرة ومُطاردة في كل مكان ، وكان هذا الإرهاب الفكري هو ما

جعل أوربا في القرون الوسطي صحراء ثقافية قاحلة ، ليس فيها إلا الأشـواك التـي يزرعهـا رجال الدين .

ولكن لا مذابح البابا انيوسنت ، ولا محاكم البابا جريجوري ، استطاعت أن تسـحق إلـي الأبد روح النقد والتفكير ، بل أن دماء الألوف من الشهداء الذين سقطوا ضحايا جمـود رجـال الدين وفسادهم روت شجرة الحرية في تربة أوربا خلال العصور الوسطي ..

وهكذا يثبت التاريخ مرة أخري إن الأفكار لا يمكن سحقها بالقوة ، مهما كان حجـم تلـك القوة ..

فما أن يحل القرن السادس عشر حتى تشتعل أوربا بالنقد والتجريح لفساد الكنيسة ، وتهب ثورة المحتجين .. أو " البروتستانت " .. ومن بعدها حركات فكرية كثيرة أسقطت سلطة الكنيسة وأعادت حرية الفكر إلى طريقها الطبيعي .

وبسقوط السلطة الكنسية المطلقة العمياء سقط القيد الحديدي الـذي فـرض علـى أذهـان الغربيين أكثر من ألف عام ، فبدأوا يلتفتون إلى البحث العلمي والفكري ، وسيتخرجون كتابـات الفلاسفة الإغريق والرومان من الاقبية التي رقدت فيها مئات السنين ..

الإسلام .. وحرية الفكر :

" يرفع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العم درجات " ..

واحدة من عشرات الآيات التي نزل بها القران الكريم تشهد بفضل العلم والعلماء ، وتدعو إلـي الفكر والمعرفة ..

وكانت أول صور القرآن الكريم " أقرأ " تأكيدا على فضل الله سبحانه وتعالى الـذي علـم الإنسان ما لم يعلم ..

فليست هناك دعوة دينية ارتبطت بحرية الفكر ، وأعلت شان العلم ودعت إلى أعمال العقل كالإسلام ، والعلم الذي دعا إليه الإسلام ، ليس العلم الديني فحسب ، لكنه العلم على أطلاقـه ،

فعندما نصح النبي عليه السلام بطلب العلم " ولو في الصين " لم تكن الصين مسلمة ، ولم يكن فيها – في عهد الرسول – شئ من علوم الإسلام ، وطبيعي إن الصين لم تكن مقصودة بذاتها ، وإنما المقصود من الحديث الحض على الاغتراب والمشقة بحثا عن العلم في أي مكان ..

وهذه الدعوة العظيمة للعلم التي جاء بها الإسلام هي في ذات الوقت دعوة لحرية الفكر ، ذلك أن السبيل إلى العلم هو حرية الفكر ، فالعلم يقتضي البحث والمناقشة والتجريب وتقليب المسائل على مختلف وجوهها ، ولا يمكن إن يأتي ذلك في غياب الحرية الفكرية .

والمبدأ الأساسي في الإسلام أنه " لا اكراه في الدين " وهو مبدأ ينطوي على أرفع معاني التسامح والحرية الفكرية ، فالإسلام لا يخشى المنافسة ، والمناقشة والمحاجاة ، لأنه دين يقوم على العقل، وليس في حاجة إلي اكراه أو ارغام .

ويحض الإسلام على الجدل والمناقشة مع أصحاب الآراء المغايرة بهدف أظهار الحق " وجادلهم بالتي هي أحسن " .. أي من حق أصحاب الرأي المخالف أن يقولوا ما يشأؤون بكل حرية ، كما أنه من واجب المسلمين إن يردوا عليهم بالكلمة اللينة ، ومقارعة الحجة بالحجة ، دون قهر أو تعصب .. فإذا لم يكن هذا السجال العقلاني دعوة إلي حرية الفكر فماذا يكون ؟؟

وما دام الإسلام قد أعترف بهذا الحق المقدس ، فمن المنطقي إن يعترف لأصحاب الديانات الأخرى بحقهم في ممارسة عباداتهم وشعائرهم في حرية تامة ، وعلى قدم المساواة مع المسلمين ، وقد التزم الرسول – والزم أمته – معه بعهد وجهه إلى رهبان دير سانت كاترين بسيناء يعترف فيه بحق النصارى في البقاء على دينهم والاستقلال بشئونهم وجاء فيه أنه " لا يخرج قس من كنسية يخدم فيها ، ولا يكره نصراني على تغيير دينه ، ولا يُخرج راهب من صومعته ولا يمنع عن طريق حجه ، ولا تهدم كنيسة ليقام مسجد أو بيت للمسلمين مكانها ، وللنصرانية المتزوجة من مسلم إن تبقي على دينها دون تعرض للاضطهاد ، وإذا أحتاج النصارى الى العون في أصلاح كنائسهم أو صوامعهم أو في أي شئ من شئونهم الدينية فيعاونهم المسلمون ، ولا يعد عملهم هذا مشاركة لهم في النصرانية ، ومن خالف هذا العهد من المسلمين عد خارجا على الرسول . "

وقد كتب هذا العهد في مسجد النبي بالمدينة بخط على أبن أبي طالب في الثالث من محرم من العام الثاني للهجرة ووقع عليه اثنان وعشرون من كبار الصحابة ..

فالقاعدة أذن في الحكم الإسلامي – في صدر الإسلام – هي التسامح الديني ، وقد حرصت الحكومات الإسلامية على احترام كافة الأديان وعدم التدخل بين إنسان وعقيدته ، بل لقد بلغ من تسامح المسلمين في الأندلس أنهم كانوا يسمحون لمبشري النصرانية بالوقوف على أبواب المساجد لدعوة الناس إلى دين السيد المسيح ..

كما دخل المسلمون إلى مدارس " الوثنيين " ليغترفوا من منابع الثقافات اليونانية والهندية والفارسية والسريانية ، فورثوا بذلك التراث الفكري للعالم القديم ، وحموه من التبدد والضياع ، ثم أضافوا إليه من عبقريتهم ألخلاقه وفكرهم الثري .

ولو لم تكن الحرية الفكرية الواسعة التي سمح بها الإسلام لما بلغت الثقافة الإسلامية هذا الشأو الرفيع ، ولما أصبحت حلقة وصل أساسية في تاريخ الفكر الإنساني .

واسمحوا لي إن انقل أليكم ما كتبته المستشرقة الألمانية زيجريد هونكه في وصف الحضارة الإسلامية ، في تلك الحقبة من التاريخ إذ تقول :
((بينما نجد الدولة المنتصرة تطلب من ألدولة المهزومة تسليمها الأسلحة والذخائر والسفن الحربية كشرط أساسي لعقد معاهدة الصلح ، إذ بنا نجد هارون الرشيد بعد انتصاراته في عموريا وأنقرة يطالب بتسليمه المخطوطات اليونانية ، وكذلك فعل المأمون بعد انتصاره على الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثالث ، فقد طلب تسليمه جميع المخطوطات اليونانية الخاصة بالفلسفة والتي لم تترجم إلى العربية كتعويض عن خسارة الحرب ، لأنها – كما قال المأمون – الأسلحة العقلية التي يتسلح بها في سبيل الإسلام وتدعيمه .))

<u>الإسلام .. والمسلمون :</u>

رأينا كيف كان الإسلام دعوة إلى إعمال العقل ، وحاميا لحرية الفكر والاجتهاد ، لكن ماذا كان موقف المسلمين في العصور التالية من هذه الدعوة السامية . وكيف آل إليها مصيرها .. ؟؟

كيف ذبل العقل الإسلامي ، وسيطرت النزعة اللاعقلية على سواد المسلمين ابتداء من القرن الثاني عشر الميلادي حتى أيامنا هذه ، وكيف أنحط المسلمون ، حضاريا وفكريا وعلميا ، حتى طعن الطاعنون في الإسلام ذاته .. ؟؟

ببساطة ، حدث ذلك كله عندما ماتت حرية الفكر بين المسلمين ، وأغلقوا عقولهم وأصبح التفكير جريمة يعاقب عليها ويطارد " مرتكبوها " بأشد الاتهامات واللعنات ..

فالإسلام – كأي حركة فكرية _ عندما توضع في مجال التطبيق ، ينقسم إتباعها إلى معسكرين : معسكر السلطة ومعسكر العقل ..

معسكر السلطة قوامه رجال الدين أو حماة العقيدة ، وهم طبقة كانت في كل عصر وزمان محدودة العقل ، شديدة التعصب حريصة على مصالحها الطبقية .. والمعسكر الآخر ، وهو معسكر أصحاب العقول ، الذين يخضعون كل شئ للعقل وحسن التقدير ، والإدراك السليم مع الالتزام بقواعد الدين ومبادئه الأساسية ، وهو رواد التطور والتحرر وشجاعة الفكر والتجديد ..

وهذا الصراع الذي عرفته جميع الأديان والحركات الفكرية في التاريخ ، لم يكن الإسلام – في التطبيق – بمعزل عنه ، ورغم أن الإسلام لا يعرف نظام " الكهانة " ، ألا أنه لم يلبث أن وقع بين براثنها على نحو أو آخر ..

ففي عهود الخلافة المتأخرة أكتسب الخلفاء مسحة دينية ، وحف بهم عدد هائل من رجال الدين الرسميين الذين كان عملهم الإفتاء استنادا إلى التراث والمأثور ، في كل كبيرة وصغيرة أبتدأء من مسائل العقيدة العليا إلى أبسط المسائل المتعلقة بالحياة اليومية والعلاقات بين الناس .

وفي صدر العصر العباسي كان المفكرون والعقلانيون يتقاسمون السلطة مع رجال الدين ، العقلانيون في المعاهد والمدارس ، والسلفيون في المساجد والمحاكم وبطانة الخلفاء ..

وبدأ الصراع يحتدم بين قوى التقدم الفكري وقوى الانتكاس والرجعية ، وحارت جماهير المسلمين بين القوتين ، تارة عن جهل .. وتارة عن غرض ..والحديث يطول عن المعتزلة وما

جرى لهم ، والخليفة المتوكل وحملته الضارية على المثقفين والمفكرين تحت ستار الدفاع عن الدين ضد الزندقة والبدع ..

فالعقلانيون – في عهده – كانوا يقولون بان " العدل " هو المبدأ الأساسي للتصرفات الإنسانية ، وأن الله ذاته يحكم الكون بالعدل ، لان " العدل " هو جوهر الله سبحانه وتعالى – وأحد أسمائه الحسنى –وان معيار ما هو خطأ وصواب لا يخضع لإرادة أي فرد ، وإنما مرجعه العدل الموضوعي وخير الإنسانية ، وكانت هذه النظريات " ثورية " بدرجة مخيفة لأنها موجهة إلى الحق المقدس للخليفة في أن يفعل ما يشاء..

ثم بدا الخلفاء – بعد – ذلك يدعون لأنفسهم حقا إلهيًا في الحكم الديني والدنيوي يماثل ما كان يدعيه باباوات روما ، يعبر عن ذلك الاتجاه أدق تعبير المنشور إلي أصدره الخليفة " الناصر " يوصي فيه الناس بطاعة أحد وزرائه فيقول عنه :

((انه نائبنا في البلاد والعباد ، فمن أطاعه أطاعنا ، ومن أطاعنا فقد أطاع الله ، ومن أطاع الله أدخله ألجنه ، ومن عصاه عصانا ، ومن عصانا فقد عصى الله ، ومن عصى الله ادخله النار)) .. !!

وفي بغداد تكونت هيئة من الفقهاء مهمتها محاربة الزندقة في كتابات العلماء والفلاسفة ، فكان أي كتاب يرون فيه – من وجهة نظرهم – شبهة للزندقة ، يلقي به وسط لهيب النيران ، ويتعرض صاحبه للسجن أو الموت ، فأضحت السيوف والأحجار والأغلال لغة الحوار مع المثقفين ، وظهرت في كثير من أمصار المسلمين أشباح محام التفتيش ، وأساليب البابا جريجوري الرابع ، تحت مسمى جديد هو الدفاع عن الإسلام .. !!

بل إن مفكرا كبيرا كالغزالي ، هاجم الفلسفة وكفر دارسيها ، وقال عن أرسطو :

((فوجب تكفيره وتكفير متبعيه من متفلسفة الاسلاميين كابن سينا ، والفارابي ، وأمثالهم .))

وأصبحت آراء الغزالي فيما بعد أقوى أساس بنى عليه اضطهاد الفلاسفة والمفكرين في الإسلام .

والواقع إن الخطأ الذي وقع فيه السلفيون ، ليس فيما قالوا به في حد ذاته ، فهذا حقهم ، لكنه في الأسلوب الذي نشروا به ما يقولون ، أسلوب التكفير والإرهاب والمصادرة واستعداء السلطات ، فوضعوا الإرهاب الفكري حيث يجب إن توضع الحرية الفكرية ..

والى يومنا هذا ، كان ذلك الخطأ في الأسلوب هو آفة الدعوة الإسلامية في كل المجتمعات ، والمدخل السهل لكل أعداء الإسلام لمحاربة العقيدة ذاتها ..

لقد حض الإسلام على إعمال العقل .. لكن قوى الرجعية الدينية والسياسية جعلت من استخدام العقل خطيئة ..

ودعا النبي إلى طلب العلم ولو في الصين .. لكن مسلمي العصور المتأخرة أمسوا يرفضونه ولو قدم لهم في بلادهم ..

وهكذا سقط المسلمون في هاوية التخلف الحضاري ، عندما ارتكبوا الخطيئة الكبرى وهي .. القضاء على حرية الفكر .. !!

عصر النهضة .. وحرية الفكر :

لم يكن الرجال الذين أطلقوا شرارة النهضة الأوربية يعرفون أنهم يصنعون النهضة ، فهم لم يرفعوا صوتا ضد الكنيسة ، ولم يخرجوا عن طاعة رجال الدين ، كل ما فعلوه أنهم استطاعوا أن يتنفسوا بحرية في ساحة أخرى غير ساحة الكنيسة .

" ماركوبولو " مثلا ، لم يقصد أن يطلق رصاصة واحدة على صدر الكنيسة ، لكن رحلاته إلى الصين أدهشت ملايين الأوربيين في أواخر العصور الوسطي ، ونسفت نسفا كل النظريات الجغرافية للكنيسة التي كانت تقول بان الأرض تشبه " الصحن المسطح " تحف به من كل جانب بحار الظلمات التي تسقط عند حوافها السفن إذا بلغتها ، في الفضاء والمجهول .. ؟ !!

وهكذا فعلت أيضا رحلات فاسكود اجاما ، وماجلان ، وكولومبس وغيرهم ..

وكانت حركة النهضة بطيئة ، لكنها دؤوبة ، استمرت زهاء ثلاثة قرون ، من القرن الرابع عشر حتى القرن السادس عشر ، وان كان المؤرخون يصطلحون على اعتبار سقوط القسطنطينية في يد الأتراك عام ١٤٥٣ بداية لحركة النهضة الأوربية ، فقد أدى هذا الحدث إلى هجرة علماء القسطنطينية إلى الغرب حاملين معهم التراث القديم لحضارات اليونان والرومان والإسلام .

وساهمت المطابع – المخترعة حديثا – في نشر الكلاسيكيات ووصولها إلى يد كل من يستطيع القراءة بثمن زهيد ، فأنتشر التعليم الجديد في المدارس والجامعات ، وبدأ البساط الفكري يسحب من تحت أقدام رجال الدين ..

وليس معنى هذا إن مجرد قراءة الأعمال الكلاسيكية أو درسها هو الذي أدي إلى إشعال جذوة النهضة الأوربية الحديثة ، وإنما الجديد هو الروح التي قرئت بها هذه الأعمال في عصر النهضة ، والنظر إلى العقل البشري باعتباره اثمن وأنبل عطاء للإنسان ، يجب استخدامه – بلا خوف – في البحث عن الحقيقة ..

الحقيقة ، ليس باعتبارها شيئا قد تم تحديده نهائيا ، وإنما باعتبارها قيمة نسبية لا يمكن الاقتراب منها إلا بالبحث الدؤوب والشجاع ..

وكان رجال النهضة يطالبون بحرية الفكر المفقودة ، ويؤكدون حقوق الفرد الذهنية والروحية والبدنية .. وعندما كسب " الفرد " حقوقه الذهنية في عصر النهضة ، أصبح من اليسير عليه إن يطالب بعد ذلك بحقوقه السياسية في عصر الثورة الفرنسية ، ثم بحقوقه الاقتصادية في عصر الثورة الصناعية ..

واندفع الأوربيون في شوق عارم نحو الاحتكام للعقل ، وكأنهم ينتقمون لأنفسهم من عصور الظلام واحتقار العقل التي اكتووا بنيرانها طويلا ..

وحرية الفكر في عصر النهضة الأوربية ، تستحق وحدها حديثا مستقلا نتحدث فيه عن رجال من امثال برونو ، ومونتيني ، وديكارت ، وسينوزا ..وغيرهم كثيرون ..

وإذا كان العصر الذي عاش فيه هؤلاء هو عصر سيادة " العقل " أي القرن السابع عشر ، فان بدايات القرن الثامن عشر قد شهدت روا دا مثل فولتير ، ومونتسكيو ، وروسو ، وديدرو وغيرهم ، الذين كانوا عصرهم بحق هو عصر ، " التنوير " الذي مهد لقيام الثروة الفرنسية ، التي أعلت قيمة الفرد وأرست دعائم حرية الفكر ..

ولا يصح أن يتبادر إلى الذهن إن مهمة هؤلاء كانت سهلة أو ميسرة بل كان عليهم إن يخوضوا المعارك الضارية من أجل مخاطبة الجماهير ، وتنوير أذهان الناس البسطاء ، وهذه المعارك الضارية هي الضريبة التي يدفعها المفكرون التقدميون في كل العصور .. دون إن نستثني من ذلك أيامنا التي نعيشها ألان .. !!

ومنذ أوائل القرن الثامن عشر بدأت أفكار وكتابات الحرية تتصاعد وتؤثر في تطور الحضارة الغربية بأكثر مما أثرت أية أفكار أو كتابات في أي فترة سابقة ، وكانت القيادة الفكرية لفرنسا ، تشاركها في ذلك بقية الدول الأوربية بدرجات متفاوتة ، وان كانت بريطانيا أكثر الدول الأوربية تمتعا بالحريات في ذلك الوقت ، إلا أنها كانت تعتبرها " حريات بريطانية " لا يمكن تصديرها إلى الخارج ..

إما فرنسا فهي التي أبتدعت فكرة تصدير الحرية والفكر الثوري إلى الخارج ، باعتبار الحرية قيمة عالمية .. فانتشرت مبادئ التسامح الديني ، وحرية الفكر ، وحقوق الإنسان ، وأن الهدف الأول لأي حكومة – والمبرر الوحيد لوجودها – ليس البحث عن القوة والجبروت ، وإنما ترسيخ الحريات وحمايتها من أي عدوان .. !!

وجاء " الجيل الثاني " من المفكرين الفرنسيين لا ليهاجموا العقيدة وإنما ليحاربوا الخرافة ، ولا ليهاجموا الدين ، ولكن ليفضحوا الكهانة ، وكانوا يدعون الناس إلى الكف عن الاهتمام بالخرافات والخوارق والغوامض ، في الوقت الذي يتسع فيه العالم كل يوم بالعلم والاكتشاف بما

يغني عن الانكفاء على ألذات ، واجترار الموروثات العقيمة ، ونادوا بوضع الطبيعة فوق ما وراء الطبيعة ، ووضع العلم فوق الفلسفة ، ودفعوا الناس إلى التساؤل والتفكير .

ثم تأتي قصة الفكر الحر في كتاب جان جاك روسو " العقد الاجتماعي " الذي أصبح فيما بعد دستور الثورة الفرنسية ، والذي يقول فيه :
((أن المجتمع نشأ نتيجة للتعاقد بين الأفراد الأحرار ، أي إن حقوق الأفراد سابقة على قوانين المجتمع ، وان المبرر الوحيد لبقاء المجتمع هو حمايته لهذه الحقوق الفردية ، وان الروح الفردية قيمة مقدسة في حد ذاتها ، وليس لاى سلطة أو قوة الحق في كبتها ، فالحرية حق طبيعي للإنسان .))

وهكذا كانت الحرية تغري بمزيد من الحرية ، فليس يكفي أن يكون كل شئ " من اجل الشعب " ، لكنه يجب أيضا أن يكون " بإرادة الشعب " ..

وهكذا أيضا امتدت أفكار " جان جاك روسو " إلى المستعمرات البريطانية في أمريكا ، وكانت محركا للثوار الذين أرادوا الاستقلال عن بريطانيا ، فليس غريبا إن نقرأ في ديباجة وثيقة إعلان الاستقلال الأمريكي عبارة روسو الشهيرة التي هزت إرجاء القارة القديمة :
((إن جميع الرجال ولدوا متساوين في الحقوق ، ولذلك لهم الحق بغير منازع في الحرية .))

وليس غريبا إن نسمع صيحة الثائر الأمريكي " باتريك هنري " : ((يا الهي .. اعطني الحرية أو الموت .))

كانت الثورة الأمريكية بداية عظيمة ، واملاً للأحرار في كل مكان ، لكن هل حافظ الأمريكيون على مبادئ ثورتهم ، وهل جعلوا من بلادهم حقا حصنا للحرية .. ؟

لم يكن الأمر كذلك منذ البداية ، فان مبادئ الحرية والديموقراطية والمساواة كانت وقفا على البيض دون الأرقاء الزنوج .. !! واحتاج الأمر إلى حرب أهلية ضروس قامت في ستينيات

القرن السابع عشر لإلغاء الرق ، ورغم إلغائه رسميا بانتهاء ما يسمى " حرب الاتحاد " ظلت القوانين التي تعبر عن المجتمع متحيزة للبيض ، وظلت النفوس كما هي بالنسبة للملونين ، على مدى حقب عديدة من الزمن بعد ألإعلان رسميا عن إلغاء نظام الرقيق .. !!

ومع ذلك كانت الثورة الأمريكية من العوامل المباشرة التي أدت إلى اندلاع الثورة الفرنسية الكبرى ، التي رفعت أعظم شعار عرفه العالم الحديث وهو : الحرية ، والإخاء ، والمساواة ..

وأصدرت الثورة الفرنسية " إعلان حقوق الإنسان " وليس إعلان حقوق المواطن " ، كما فعلت الثورة الأمريكية ، ونص إعلان حقوق الإنسان على انه " لا يجوز اضطهاد أي مواطن أو المساس بوسائل معيشته بسبب آرائه أو معتقداته . "

وأقامت الثورة الفرنسية أول نظام ديموقراطي كامل يحكم فيه الشعب نفسه بنفسه ، فأصبحت السيادة للشعب ، ، وأصبح الشعب هو الذي يقرر كل شئ بما في ذلك انتخاب الأساقفة والقسس ، وأرغم رجال الدين على أداء يمين الولاء للشعب كخدام له ، تماما كالمدرسين وموظفي البريد وعمال الجمارك .. والحكام ..

مذبحة حرية الفكر :

لم تلبث الثورة الفرنسية بعد نجاحها أن فقدت توازنها ، وانزلقت إلى هاوية الرعب والإرهاب ، فقضت بنفسها على حرية الفكر التي قامت من اجل إعلائها .. ولم تمض سنوات حتى سيطر المتطرفون على مجريات الأمور فأعلنوا إلغاء الأعياد والرموز المسيحية ، كما الغوا الأسابيع والشهور وأعادوا تقسيم السنة إلى فترات من عشرة أيام ، ووضعوا لكل فترة منها اسما وثنيا ، وتطرفوا أكثر فأعلنوا إلغاء الدين ، وعبادة العقل بدلا من عبادة الله ، واسقطوا صورة العذراء ليرفعوا مكانها تمثال الحرية .. والغوا الكنيسة واحلوا محلها " معبد الفلاسفة " ..

وظلت هذه الفوضى زهاء عامين ، حتى جاء " روبسبيير " في ٧ مايو سنة ١٧٩٤ وأعلن " عودة الله إلى مكانه على الأرض " وفرض حكما من الإرهاب السافر تم خلاله الاطاحه بأكثر من ١٤٠٠ راس تحت حد المقصلة ..

لقد كان عصر الإرهاب هذا – رغم بشاعته – هو الوسيلة الوحيدة لمنع المجتمع الفرنسي من الانحلال بعد إن تحولت الحرية إلى استبداد ، والحماسة إلى انقسام ، والتسامح إلى تعصب ، والتجديد إلى فوضي ، واخذ كل فريق – كما هي العادة – يتهم الآخرين بالخيانة أو الكفر ، ويسوقهم إلى المقصلة ..

وفي أعقاب عشر سنوات من قيام الثورة ، وقعت فرنسا تحت براثن " اكفأ " دكتاتورية عرفتها أوربا في تاريخها الطويل ، واخمد نابليون حرية الرأي والتعبير بأكثر مما فعل اى دكتاتور آخر في التاريخ ، بدعوى توحيد فرنسا في ظروف الحرب ، وهي الدعاوى التي تطورت – فيما بعد – وفي أماكن أخرى من العالم ، إلى شعار يقول انه " لا صوت يعلو على صوت المعركة " .. !!

وإذا كانت مبادئ الثورة الفرنسية قد ضربت – داخل فرنسا – على يد نابليون ، فأنها قد انتشرت – على يديه أيضا – في الدول المجاورة لفرنسا ، فأينما كانت جيوشه تسير ، كانت تنتشر معها بذور الحرية ، فقد رفعت جيوش نابليون فكرة انتصار الشعوب كوسيلة " إعلامية " لتسهيل فتوحاتها ، ومهما كان قدر" النفاق " في هذا الزعم ، فقد كان مفيدا لفكرة الحرية ، وحتى الأعداء الذين حاربتهم فرنسا الثورية أخذوا بأفكارها ، فقد اكتسح نابليون مثلا أسبانيا ، لكن عندما حرر الوطنيون الأسبان بلادهم من سيطرة فرنسا ، وضعوا دستورهم الجديد عام ١٨١٢ على نمط دستور الثورة الفرنسية ..

وكذلك أخضع نابليون الشطر الأكبر من ألمانيا ، واثار ضده المقاومة الألمانية العنيدة ، لكن أول مطالب الوطنيين الألمان في عام ١٨١٣ كان الحرية السياسية ، وأرغموا ملك بروسيا نفسه أن يعدهم بالدستور ..

حتى القيصر في روسيا .. أضطر للاعتراف بمبادئ الحرية التي جاءت بها الثورة الفرنسية ..

وهكذا أثبتت الحرية أنها لا تموت .. وأنها قد تتوارى في حقبة من الحقب تحت ضغط الطغيان ، لكنها لاتلبث أن تظهر وتخوض معاركها وتنتصر ..

وما تاريخ البشرية كله إلا صراع بن الحرية والتقدم من ناحية ، والطغيان والرجعية من ناحية أخرى .. فهل أدرك الطغاة عبرة التاريخ .. ؟؟

للأسف لم يدركوها ، فعادت البشرية تعانى من خلال عصور سميت بالماركسية ، والنازية والفاشية ، والناصرية وغيرها كثير .. !!

وبعد ..

إذا كان لكل حديث هدفا ، فما هو الهدف من هذا الحديث .. ؟؟ الهدف هو تلخيص تجربة التاريخ في المبادئ آلاتية :

أولا : أن حرية الفكر متلازمة مع الحضارة الإنسانية ، فكلما اتسعت حرية الفكر ، ازدهرت الحضارة ، وكلما ازدهرت الحضارة اتسعت حرية الفكر .. والعكس صحيح ..

ثانيا : أن الذين يتوهمون أنهم يحتكرون الحقيقة ، هم أشد أعداء حرية الفكر، فالحقيقة أكبر من أن يهتدي إليها فكر واحد .. أو عصر واحد ..

ثالثا : أن التعصب الديني – في كل الأديان – يقتل حرية الفكر مهما كانت النوايا .. او الدعاوى .. ومهما كانت البدايات ..

رابعا : أن حرية الفكر وان كانت تقوم على احترام حق الجميع في الاعتقاد بما يشاؤون – دينيا أو مدنيا – فأنها لا تسمح لعقيدة واحدة أن تفرض نفسها على سلوك المجتمع .. أو تحد من اجتهاد أصحاب العقائد الأخرى .. تحت أي شعار ..

خامسا : أن الحكم الفردي – مهما كان عدله أو بطولته – لا يصلح لحكم شعب من الأحرار ولا يمكن أن يكون – مهما بلغ في تسامحه – إلا قيدا على حرية الفكر ..

سادسا : إن التسامح بين أصحاب المذاهب والعقائد ، ليس فضلا من مذهب على آخر ، أو عقيدة على أخرى ، لكن التسامح وسعة الأفق هو ضرورة اجتماعية في غيابها لا يمكن أن يقوم مجتمع متحضر ..

سابعا : إن حرية المجتمع هي حاصل جمع حريات أفراده ، فلا يمكن أن يكون المجتمع حرا ألا إذا كان أفراده أحرارا ، وبالتالي فأن دعاوي سمو حرية المجتمع على حرية الفرد هي دعاوى الأنظمة الشمولية ، وحجة أعداء الحرية ..

ثامنا : إن تنظيم ممارسة الأفراد لحريتهم ، وضوابط عدم تجاوزهم في ممارستها ، يجب أن تتم بإرادتهم ، وهذه هي الديموقراطية ، أما فرض النظام عليهم – حتى لو كان في مصلحتهم – فهو الدكتاتورية .. مهما اصطنعوا لها من أسماء ..

تاسعا : إن الساعات العصيبة – بالذات – هي الساعات التي تتطلب – قبل أي شئ آخر – أن يعلو فيها كل صوت بالرأي والاجتهاد فإنما يُطلب الرأي لساعة ألازمات .. والقول بغير ذلك شعار المستبدين ..

عاشرا : إن حركة التاريخ هي ذاتها حركة الحرية ، وما الواقفون في وجهها إلا كالواقفين أمام فيضان نهر عظيم .. مصيرهم الغرق .. أو الموت وهناً على شاطئ النهر العظيم ..

** ** **

هكذا تعلمت من الحياة .. وهكذا علمت أبنائي ..

احمد طلعت

---

١٣ شارع الحرية – مصر الجديدة